دراسة ونقد

مسرحية "السلطان الحائر"

لتوفيق الحكيم

تستمد هذه المسرحية مادتها الاولية من احداث التاريخ العربي في عصوره المتأخرة ، وان لم تكن هي في ذاتها مسرحية تاريخية . ذلك انها لا تتقيد بسيرة اشخاص بعينهم مأخوذين من التاريخ بحيث تسرد لمحات من حياتهم تجسمها في اطار مسرحي ، وانما استلهمت التاريخ في استحداث شخصيات تمثل نماذج بشرية عامة مثل الغانية وقاضي القضاة والوزير والسلطان والخمار والاسكافي . وقد حرص توفيق الحكيم على ان يضمن لنفسه النجاة من حساب الذين يعنون بالمحافظة على جوهر الحقيقة التاريخية ، فلم يضع لهؤلاء الاشخاص اسماء تميزهم وانما تركهم « نماذج » كما قلنا ، وبذلك لم يعد من حق الناقد ان يحاسب المؤلف على تحريفه لشخصية هذا او ذاك من رجال التاريخ . ولقد اتاح ذلك لتوفيق الحكيم فرصة يخرج فيها على ملامح الشخصيات الواقعية التي قد يكون استمد منها اصول المسرحية . ومنها شخصية العالم الاسلامي عبد العزيز بن عبد السلام (١) المتوفي سنة ٦٦٠ هـ ، وكان ذا شخصية قوية متسلطة ، وشغل منصب القضاء وغيره وكان مسموع الصوت لدى السلاطين ، لا يبالي ان يخالفهم نصرة للحق ، وقد يفرض عليهم رأيه وعقيدته . والواقع الذي لا بد لنا ان نقرره انه ما من دليل مطلقا على ان توفيق الحكيم قد ارتكز الى هذه الشخصية في رسم صورة « قاضي القضاة » لانه لم يسمه باسمه في المسرحية . غير ان ادارة المسرح القومي (الذي مثلت عليه المسرحية اول مرة في القاهرة) قد اشارت في اعلاناتها الى شخصية هذا القاضي باعتبارها مصدرا لاحداث الحكاية حينما عرضت المسرحية في القاهرة اول مرة (٢). وهذا غير ملزم لتوفيق الحكيم على أي وجه من الوجوه ما دام لم يتقيد فنيا بالاسماء .

١ ـ اخبار عبد السلام موجودة في ذيل مرآة الزمان ـ المجلد الاول لقطب الدين اليونيني الحنبلي ص ١٧٢ ـ كذلك ذكره ابن العماد الحنبلي في كتابه « شذرات الذهب في اخبار من ذهب » ص ١٠٣ .

٢ ـ معلوماتنا عن اخراج المسرحية في القاهرة مستندة الى كتاب الدكتور محمد مندور « مسرح توفيق الحكيم » وقد ادرج فيه جانبا من اعتراض اثاره الاستاذ أمين الخولي حول تاريخية الشخصيات في المسرحية .

١ ـ الحكايه وبناء المسرحية

جوهر القصة التي استوحاها توفيق الحكيم من التاريخ ان احد النخاسين قد لفظ بان السلطان رفيق مملوك لم يعتق ومن ثم فان حكمه للبلد باطل شرعا لانه لا يصح ان يحكم الناس الا رجل حر . وسرعان ما يقبض رجال الشرطة على هذا النخاس ويسوقونه للاعدام في ساحة عامة بالمدينة . ويلجأ النخاس الى عدل السلطان فيسأله ان يحاكم قبل تنفيذ الحكم ويقبل السلطان الطلب وتتم المحاكمة . وسرعان ما يتبين ان تهمة النخاس صادقة وان السلطان مملوك لم يعتق . ويلتمس الحاضرون وبينهم السلطان حلا لهذه الازمة الخطيرة فيضر قاضي القضاة على التزام حكم الشرع والقانون في هذه القضية ومضمونها ان يباع السلطان بالمزاد العلني ، فاذا اعتقه المشتري صح ان يرجع سلطانا ويحكم الناس . ويتم البيع العلني فعلا في مشهد مثير وتكون المفاجأة المذهلة ان المواطن المتخفي الذي اشترى السلطان ليس الا المرأة الغانية التي يسميها الناس « عاهرة » . وتكون المفاجأة الثانية ان الغانية ترفض ان تعتق السلطان الا اذا قضى ليلة في منزلها ، على ان يكون اذان الفجر علامة انتهاء هذه الليلة . ويتم ذلك كله دون ان يلجأ السلطان الى الباطل او الى السيف في الخلاص من مأزقه المتلاحقة . غير ان الغانية تضطر الى توقيع وثيقة العتق في منتصف الليل لان قاضي القضاة دفع المؤذن بالقوة الى ان يؤذن اذ ذاك لصلاة الفجر . وتنتهي المسرحية بسورة عاطفية نبيلة تجيش بها نفس الغانية ، وتترقرق في المشهد كله معان فلسفية وانسانية مؤثرة تضيف قيمة حية جديدة الى ادب توفيق الحكيم .

هذا ملخص الحكاية كما رسمها المؤلف في المسرحية ، وعليها بنى عملا فنيا مثيرا في ثلاثة فصول . فاذا اردنا ان ندرس اسلوب العرض الفني الذي استعمله توفيق الحكيم لاحظنا انه التزم تخطيطا عاما في الفصول كلها : فكان يبدأ الفصل بعرض المشكلة من وجهة نظر الجمهور الذي يمثله شخص او شخصان ، ثم ينتقل ويعرض وجهة نظر السلطان وحاشيته .

ففي الفصل الاول يبدأ العرض بتقديم (محكوم عليه) مجهول الهوية مشدود الى عمود في ساحة عامة بالمدينة والى جانبه جلاد

مبتذل في حالة سكر . ونفهم من السياق ان هذا المتهم نخاس يبيع الرقيق وقد اتهم السلطان بانه عبد مملوك لم يعتق فلا يصح له ان يحكم البلد . ثم يتيح لنا المؤلف ان نعرف الموضوع من وجهة نظر السلطان الذي كان يحسب انه قد عتق .

وفي الفصل الثاني يحدث شيء يشبه هذا فهو يبدأ بعرض خواطر الجمهور ومشاعرهم . ويكون الخمار والاسكافي والجلاد رمزاً لسكان المدينة ينقل دهشة العامة من ان السلطان يباع في المزاد العلني كما تباع الاشياء . ثم ننتقل الى مشهد البيع فنعرف وجهة نظر السلطان ومسلكه الفذ في هذا الموقف العصيب .

ولا يحيد الفصل الثالث عن هذه الخطة الفنية ، فهو يبدأ بالجمهور المستثار وقد تجمع حول منزل الغانية يتساءل في ريبة صارخة عما يفعله السلطان هناك . وحين يتأزم تطلعنا ينقلنا توفيق الحكيم الى داخل المنزل لنعرف ما يدور فيه . وهذا الاسلوب الذي استعمله المؤلف في عرض جانبين مختلفين للموضوع في كل فصل قد اتاح لنا المقارنة المستمرة بين مواقف الاشخاص المختلفين بازاء الاحداث وكشف عن نفسياتهم ومسالكهم .

وقد استعان توفيق الحكيم ببعض الوسائل المسرحية في بناء عمله الفني ومن ذلك اسلوب (التقابل والتضاد) (ما يسمى عند الانكليز Parallelism and Contrast) فكان آذان الفجر أحد التفاصيل التي انتفع بها في شد اجزاء المسرحية وربطها واحداث نبرة من الفكاهة فيها . ففي أول المسرحية يتعلق بآذان الفجر قتل رجل قال الحق . وعندما يصبح الاذان موعداً لاراقة الدماء البريئة تتقدم الغانية وتتفق مع المؤذن على خدعة وذلك بالا يؤذن للفجر تلك الليلة فيبطل الحكم وينجو المحكوم عليه .

وفي الفصل الثالث كان أذان الفجر موعدا لخروج السلطان من منزل الغانية ، وقد تجمعوا حول المؤذن وأوحوا اليه ان بقاء السلطان في هذا المنزل يلطخ شرفه ويسيء الى مكانته ثم الحوا عليه ان يؤذن للفجر في منتصف الليل . وأذن المؤذن راضخا . فهذا المؤذن قد أقام نوعا من الربط بين الفصل الاول والفصل الثالث . ووجه الارتباط المسرحي ان الغانية التي انتصرت على الجلاد في الفصل الاول بالتحكم في الآذان ، قد دحرها قاضي القضاة في الفصل الثالث بالتحكم في الآذان نفسه ، وبذلك انتهى حلمها الجميل وخرج السلطان من منزلها . ويحصل التضاد المسرحي Contrast من كون الآذان يخدم الغانية مرة ويدحرها مرة . اما مغزى التدخل في قضية جليلة لها قداستها مثل الآذان فسنقف عنده فيما بعد حين ندرس فلسفة المؤلف في مسرحيته .

كذلك لجأ توفيق الحكيم ، في بعض وسائله المسرحية ، الى احداث حادث صغير يؤدي معنى معينا ثم تكراره في حادث اكبر يؤدي المعنى نفسه وهو ما يسمى في النقد الغربي اصطلاحا بالتقابل Parallelism) ويتجلى ذلك الحادث الصغير في موقف الطفل الذي يريد أن تشتري له أمه « السلطان » . فان شراء السلطان بالنسبة للطفل مجرد نزوة طارئة وكأن السلطان لعبة من اللعب المسلية . وقد اراد توفيق الحكيم بهذه اللمسة التمهيد لموقف الغانية التي كانت اول الامر تلهو كالطفل فارادت ان تشتري السلطان لتستمتع بصحبته وتزين به مجلسها (تلعب بكلمة اخرى) . فتكرار الدافع الطفولي في الحالتين يخلق جوا من الشبه بين الطفل والغانية . ولنقارن الدوافع. دار الحوار التالي بين الطفل وأمه :

الطفل ـ هل للسلطان سيف ؟

الأم ـ نعم ، سيف كبير .

الطفل ـ وهل سيبيعونه هنا ؟

الأم ـ نعم يا بني

الطفل ـ متى يا أماه ؟

الأم ـ عما قليل .

الطفل ـ أماه ، اشتريه لي .

الأم ـ ماذا ؟

الطفل ـ السلطان . اشتري لي السلطان .

الأم ـ اسكت . انه ليس لعبة تلعب بها .

الطفل ـ انك قلت انهم يبيعونه هنا . اشتريه لي اذن .

الأم ـ يا بني . اسكت . هذا ليس لمثلك .

فالطفل لا يريد ان يشتري السلطان الا لانه يحب ان يلعب به وبسيفه وقد حسبه لعبة من اللعب . والموقف هنا مجرد من أي جد وانما هو نزوة عابرة في قلب طفل صغير . ثم لندرس مضمون موقف الغانية من شراء السلطان . دار الحوار التالي :

الغانية ـ لا . لا اريد ان اتركك . لا اريد ان اتخلى عنك . انت مملوك لي . انت لي ، لي .

السلطان ـ لك ولغيرك من أبناء هذا الشعب .

الغانية ـ اني أريد ان تكون لي وحدي .

السلطان ـ وشعبي ؟

الغانية ـ شعبك لم يدفع فيك ذهبا ليحصل عليك .

وفي موضع آخر تقول له : « حقا . وأي فخر وأي سرور ان اسمع هذا من فم سلطان عظيم . انه لشرف يستحق ان يدفع له ذهب الارض كله . ما من احد يجسر بعد اليوم على ازدرائي في المدينة فانا أسيء معاملة السلاطين . » وفي موضع آخر تقول له ان عليه ان يحكم الشعب من بيتها اذ تعيره للدولة نهارا وتسترجعه ليلا . فهذه الفتاة كما يبدو من مسلكها الصبياني تحسب السلطان حلية لطيفة يمكن ان تقتنيها . وموقفها في ذلك يشبه موقف الطفل .

ومن الوسائل اللطيفة التي قوت بناء المسرحية تلك المفارقات التي نعثر عليها فيها . فالمحكوم عليه مثلا ينجو من القتل ويبيع هو نفسه السلطان ، بينما كان المقرر اولا ان يقتل بأمر السلطان .

والمفارقة الثانية تكمن في حقيقة الغانية ، فالمسرحية تبدأ ونحن نحسبها « عاهرة » ساقطة يسخر الجلاد من وصفها لنفسها بالسيدة ولا تنتهي المسرحية الا وقد ارتفعت الى أعلى مقام لأن السلطان نفسه يسميها السيدة الفاضلة النبيلة .

والمفارقة الثالثة يتضمنها موقف القاضي فهو في بداية المسرحية أعلى مثال للذين يحترمون القانون ويؤمنون بقدسيته ، ولكن تقدم الاحداث يعريه بين أيدينا ويوقفه نموذجا سيئا للتحايل على القانون والعبث به لاغراض غير قانونية فيها ظلم للناس . وهكذا ترتفع الغانية وينحدر القاضي . الغانية التي هي احط فرد في الدولة والقاضي الذي هو اعلى فرد فيها بعد السلطان ، وكأن تبادلا يقع بينهما في قوة الخلق ونظافة السلوك .

٢ ـ دراسة الشخصيات

١ ـ شخصية السلطان

رسم توفيق الحكيم في السلطان شخصية محبوبة تنزل من نفس القارىء منزلا جميلا فمنحه صفات طيبة كالعدل ورحابة الصدر والحكمة والشجاعة والذكاء وسرعة الخاطر واحترام القانون ورقة الشعور . وخلاصة القول انه جعله انسانا رقيق المشاعر مستقيما كريم الطباع واعطاه الى جانب ذلك الصبر وروح النكتة في المواقف الحرجة . وسنحاول فيما يلي ان نمثل لهذه الصفات فيه بنماذج من سلوكه واقواله تثبتها وتؤكدها .

اما عدالة السلطان فقد تجلت في سماعه لظلامة المحكوم عليه عندما تقدم يطلب ان يحاكم قبل اعدامه ، فقد لبى السلطان طلبه فورا وأقبل مع قاضي القضاة الى ساحة الاعدام حيث يحاكم . وعند هذا قد يوجه الى المؤلف نقد : فهل من المعقول ان سلطانا يحاكم متهما في ساحة عامة ؟ ولماذا لم يستدعه الى مجلس السلطنة لمحاكمته كما هو الدارج في هذه الحالات ؟ في الواقع ان توفيق الحكيم كان مضطرا

الى هذه « الفلطة » المسرحية اضطرارا لان التاليف المسرحي ـ كما هو معروف ـ يلزم المؤلف بالمحافظة على وحدة المكان في الفصل الواحد . والمحكوم عليه كان مشدودا الى عمود في الشارع ، لكي يكون امام منزل الغانية ، ومن ثم فلا بد من ان يؤتى بالسلطان واتباعه الى هذا الموضع نفسه حفظا لوحدة المكان ورغبة في عدم تغيير المنظر . فكان هذا اخلالا بمعقولية الاحداث وتحريفا للواقع . ولعلنا لا نحتاج الى القول بان المسرحية الكاملة ، لا تخضع للضرورات الخارجية ، وانما حاكمها الوحيد منطق الفن . ولقد كان في امكان مؤلف قدير متمكن مثل توفيق الحكيم ان يتحاشى هذا التعسف لو بذل جهدا اضافيا في التخطيط لهذه المسرحية البديعة .

واما شجاعة السلطان فتبدو على ضربين : احدهما معنوي والآخر مادي . فالشجاعة المعنوية تبدو في صبر السلطان على تلك المواقف الحرجة المهينة التي تعرض لها ، فقد ووجه ـ وهو السلطان المهيب ـ بانه عبد رقيق لم يعتق ، فقابل ذلك في رحابه صدر واضحة ولم يغضب ولم ينفعل وانما تقبل الامر اجمل تقبل . ولو كان غيره في مكانه من القوة لربما شهر السيف غضبا .

وتبدو شجاعته الفعلية في ميدان القتال ، فقد سمعناه يصف مسلكه قائلا : « لم يحدث قط اني رجعت خطوة واحدة الى الوراء ولا حتى في ميدان القتال . اعترف ان هذا خطأ من الناحية الحربية فهناك احوال يتحتم فيها التقهقر . ولكني ما فعلت هذا قط . » ويقول في موضع آخر ذاكرا حروبه : « انا الذي كان قائدا للجيوش وقاهرا للمغول » ولقد كان ينتصر في حروبه وقد انتزع بحد سيفه ياقوتة فريدة من رأس كبير المغول . والمسرحية كلها تصفه قائدا منتصرا مشغولا بالحروب والاعمال المجيدة حتى لا يجد وقتا للعواطف والزواج .

وحكمة السلطان يعترف بها الآخرون ومنهم المحكوم عليه الذي عرفناه صريحا جريئا الى حد انه قابل السلطان بحقيقة رقه وعبوديته دون ان يخاف العقاب ، ومن ثم فنحن نتقبل قوله له : « بل انت من خيرهم حكمة وسدادا ابقاك الله ذخرا لرعيتك » .

ونعرف في السلطان صفات أخرى نصت عليها الغانية في قولها له : « ما من شيء يصعقك . ان لك لرباطة جاش وثقة بالنفس وتحكما في اعمالك وقدرة على صنع ما تريد بدقة واحكام وحزم . انك بعيد عن الضعف والمخاتلة . انك صريح طبيعي شجاع تحترم شروط اللعب بامانة واخلاص . » ثم تضيف الى ذلك بعد قليل قائلة : « انك غاية في الذكاء والفطنة بل وفي رقة الشعور أيضا على الرغم مما يبدو عليك ومما تتظاهر به » . ونحن نقبل هذه الاحكام من الغانية ونعتبرها وصفا صادقا للسلطان ، لاننا عرفنا هذه الفتاة جريئة صريحة الى درجة انها سلمت السلطان « بضاعة » وطلبت تسليمها في بيتها. وقد اعترف السلطان نفسه بانها « تسيء معاملته » واعترفت هي قائلة : « كنت وقحة معك عن عمد ومتبذلة سليطة عن قصد . » فاذا اثنت عليه وامتدحته بعد ذلك امكن لنا ان نعد ذلك منها تشخيصا صادقا لصفات حقة فيه .

ومن مظاهر الذكاء وسرعة الخاطر في السلطان انه أدرك مراد قاضي القضاة سريعا عندما لخص له موقف الاختيار الضروري بين احتمالين فقال له : « فما عليك يا مولاي سوى الاختيار بين السيف الذي يفرضك ولكنه بعرضك وبين القانون الذي يتحداك ولكنه يحميك . » وقد ادرك السلطان فورا ان هذه العبارة هي الجوهر الاساس في حديث القاضي فراح يقلبها في ذهنه ويكررها . ونحن نلتفت الى هذا الادراك ونبرزه ونلح عليه ، بسبب ما نعرف من ان اغلب الناس ـ دائما ـ يضيعون في تفاصيل الاحاديث ولا يستطيعون النفاذ الى جوهرها . ولا يمكن لانسان ان يشخص الاسس الا اذا امتلك العقل الناضج ووضوح الفكر وقوة الشخصية . وهذا السلطان الفذ يملك هذه القدرة . وانما نقدر موقفه في هذا الموضع عندما نتذكر انه في اول المشهد اندفع الى فكرة القتل حلا للمشكلة منقادا لحماسة الوزير في هذا الاتجاه . فما كاد قاضي القضاة يبين له تفاصيل الحالتين ونتائجهما حتى تحسس موضع الاشكال والحيرة وتفهم المسالة تفهما ذكيا ووقف من ثم حائرا . ولو كان في مكانه انسان آخر اقل ذكاء وحساسية لما استطاعت عبارة واحدة من قاضي القضاة ان تحول مجرى تفكيره هذا التحويل الخطير .

ونصل عند هذا الى موقف السلطان من القانون واحترامه العميق له وتمسكه به تمسكا مطلقا بعد ان شرح له القاضي وجهي المسالة . فما كاد السلطان يفهم حتى صاح « القانون ... اخترت القانون » وكان هذا الاختيار دلالة على قوة اكيدة في شخصية السلطان لاننا حين نتامل مضمون هذا القانون نجده ينطوي على اهانة بالغة للسلطان وهل هو الا أن يباع هذا الحاكم الجليل بالمزاد العلني أمام شعبه كما تباع الاشياء ؟ ومن ثم فان اختياره ينطوي على معاني الصبر والبطولة والتضحية والا فما كان أسهل ان يحمل سيفه ويقتل القاضي فلا يحاسبه أحد ، كما صنع المعز لدين الله الفاطمي الذي قص الوزير قصته .

اما الممانعة الاولى الفورية التي لمسناها لدى السلطان فهي لا تدل الا على انه أخذ وفوجيء ودهش عندما سمع أول مرة انه (في نظر الشرع والقانون عبد رقيق . والعبد الرقيق يعتبر قانونا وشرعا شيئا من الاشياء ومتاعا من الامتعة) وان عليه ان يحتمل البيع بالمزاد العلني امام الشعب . واي سلطان لا يذهل ويخرج عن أطواره حين يسمع مثل هذا ؟ فاذا رأيناه يندفع بلا تفكير ويخطر له اختيار السيف للتخلص من هذه الازمة العويصة فان ذلك يشخص انفعالته الاولى ازاء ما يسمع . اما عندما فكر وتدبر وتأمل فانه لم يختر الا القانون راضيا لنفسه الاهانة الكبرى وهي البيع العلني امام الجمهور . فلا ينبغي للناقد ان يحكم بأن السلطان دموي المزاج وانما هو على العكس من ذلك متسامح صبور وقد رأينا من سماحته وصبره بازاء وقاحة الغانية وسوء معاملتها ما رفع مكانته في أعيننا درجات . ولقد رأيناه يسلك بازائها مسلك العقل فلا يلجأ الى السيف كما ينصح الوزير وانما يختار الصبر واللين والتعقل ثانية فيدور هذا الحوار الجميل :

الوزير ـ يا مولاي ، ما دام القاضي قد أخفق وأفلس فلنرجع الى وسائلنا نحن .

السلطان ـ لا لن نرجع الى الوراء .

الوزير ـ بالسيف يتم كل شيء في يسر ويحل في طرفة عين .

السلطان ـ لا ، لقد اخترت القانون ، وسأمضي في هذا الطريق مهما يصادفني فيه من أوحال .

الوزير ـ القانون ؟

السلطان ـ نعم . ولقد قلتها أنت منذ قليل ونطقت بألفاظ جميلة. ان السلطان اختار ان يخضع للقانون كما يخضع له أضعف فرد في رعيته . ان هذا القول الرائع يستحق ان يبذل في تحقيقه كل جهد .

ويلتجيء السلطان الى محاولة اقناع الغانية بلين الكلام وقوة المنطق وبذلك يدل على تسامحه وصبره ثانية ، وذلك هو الذي يؤثر في نفسية الغانية فتعجب من رحابة صدره ورقة شعوره وسماحته وتكون النتيجة ان تتراجع عن موقفها المتعسف . وتكون الفلسفة الجديدة التي تلخص موقف السلطان من هذه الاحداث جميعا قوله : « ان الذي يمضي قدما الى الامام في خط مستقيم يجد دائما مخرجا . » ويضيف الى ذلك في موضع آخر : « الانتصار الحق هو في حل العقدة بلباقة الاصابع » اي في عدم استعمال السيف . وقد مضى في هذا الى درجة انه قرر ان يتنزل عن عرشه ان أخفق في حل المشكل عن طريق القانون. وقد شرح ذلك للغانية واخبرها انه مصر عليه ، فتفجرت بالاعجاب به والثناء عليه كما سبق ان ذكرنا .

وتكمن المفارقة الواضحة في موقف قاضي القضاة الذي كان حاميا للقانون متمسكا به كل التمسك في الفصل الاول ، فاذا هو في الفصل الثالث يستهين به ويخرج عليه ليذل الغانية ويخيب املها . اما السلطان فقد انقلب موقفه من ذلك الذي حاول التهرب من القانون في الفصل الاول الى هذا الذي تفجر يعاتب القاضي في الفصل الثالث على عبثه بتفسير القانون من أجل رغباته الشخصية وعندها نسمع كلمات السلطان تنزل في حرارة وانفعال : « خيبت ظني فيك يا قاضي

القضاة . اهذا هو القانون في رأيك ؟ اجتهـاد وبراعة فـي التحايل والتلاعب ؟ »

وكان السلطان في هذا انسانا رقيق الشعور فقد عز عليه ان تدفع الفتاة كل اموالها ثمنا لليلة واحدة يقضيها السلطان في منزلها ، ومع ذلك يحتال عليها قاضي القضاة ليخرج السلطان فـي نصف الليل .؟ وكان السلطان قد قدر موقف الفتاة كله واجل نصيحتهـا فرأى من حقها عليه ان يكافئها بتحقيق رغبتها الصبيانية فـي ان ترى السلطان فـي منزلها . ولذلك وجد في موقف القاضي الذي حرمها هـذه الفرصة بظلمه ، أساءة لا تغتفر وعبثا بنصوص قانون صريح .

على ان المشاهد والقارىء لا يملكـان الا ان يتساءلا هنـا كما تساءلنا : هل أحب السلطان الفتاة فكان ذلك دافعا الى رغبته في اتمام الليلة في منزلها ام انه أراد بذلك مجرد الدفاع عن رغبة الفتاة نفسها ؟ وسواء اكان الامر هذا أم ذاك ، فلا ينبغي لنا ان نجرد السلطان مـن حرصه على تطبيق القانـون حتى ونحن نفهم انه قد مال بقلبه الى الفتاة، لانه اثبت هذا الحرص على القانون في مواقف متعددة قبل ذلك . ولان منطق النفس الانسانية منطق معقد تتشابك فيه العوامل والدوافع فـي اغلب الاحيان ، وتتمثل هذه القاعدة عند ذوي الضمائر الحية والمثـل السامية على الخصوص لان دوافعهم الخلفية النبيلة كثيرا مـا ترتبط بدوافع عاطفية غزيرة تمليها عليهم سعـة آفاقهم واحتشاد مواردهم . وهذا يجعل مسلكهم ازاء القضية الواحدة غنيـا بالدوافع الكثيـرة والاعتبارات .

٢ ــ شخصية الغانية

يقوم السؤال في نفس القارىء والمشاهد حـول هـذه الفتاة : أشريفة هي أم ساقطة ؟ اما نص المسرحية فهو يبرزها فاجرة في نظـر المجتمع ، لان الرجال يزورونها ويسمرون في منزلها وينعمون بالموسيقى وبالشراب والرقص . ولكن توفيق الحكيم قد حرص على اظهار الظلـم والاعتداء في هذه النظرة ، لان الفتاة في حديثها الـى السلطان تكشف عن حقائق تغير الموقف فتعلم أنها امرأة حرة التفكير تريـد للمرأة ان تخرج من ضيق الافق ونزمت القيود ، فتجالس الرجال مجالسة عاقلة بريئة فيها الفن والثقافة والسمر دون ان تكون لها علاقات آثمة بهم . وقد سمعنا الغانية تقول للسلطان في هذا الصدد « تحلو لـي صحبة الرجال من اجل أرواحهم لا من اجل اجسادهم ». وقد كـان السلطان في بداية حديثه اليها لا يحترمها وانما يسميها « أيتها المرأة » وهي تسمية مهينة فيها أشعار بانها غير شريفة . ولكنه بعـد ان جالسهـا وعرف تفاصيل حياتها وتفكيرها أصبح يحترمها بأن يوحي الينا بأنها رغم مظان العبث في حياتها سيدة شريفة اخطأ المجتمع فهمهـا بسبب الملابسات الخارجية . وفي هذه الحالة يصبح حكم المجتمع عليها بالفجور حكمـا على المجتمع نفسه بالجهل والجمود والسطحية بحيث تبـدو الشريفة عاهرة . والواقع ان توفيق الحكيم لا بد وان يكون قصد هذا واراد ان يوجه نقدا صامتا الى مجتمع العصور العربية المتأخرة الذي عزل المرأة عن الحياة ومنعها من العمل والاختلاط والحركة خلافا لمـا كانت عليه نساء العصر الاول للاسلام حين كانت المرأة تركب الخيل وتطلب العلـم وتشارك في الحروب وتجالس الرجال في المجالس الادبية ، ولدينا في هذا الصدد اسماء نساء عربيات لامعات مثـل السيـدة سكينة بنت الحسين والخنساء الشاعرة وليلى بنت طريف الشاري وسواهن . ولم يصبح عزل المرأة عرفا اجتماعيا دارجا الا في عصور الكوارث والظـلام الاخيرة حين خيم الجهل والجمود على المجتمع العربي. وكل ذلك قد جعل توفيق الحكيم يصنع نموذجا متحررا لامرأة عربية تثـور علـى التقاليد البالية في ذلك العصر فتكـون النتيجـة ان يسميها الناس « عاهرة » .

ولا بد لنا أن نلاحظ ان هذا الاسم القارص الذي أطلقه الناس على الغانية قد أثر في حياتها وجعلها أحيانـا تتحلل مـن مبادىء السلوك المستقيم ولو تحللا جزئيا . فقد كانت تتألم أشد التألم من ان المجتمع يعتبرها ساقطة ، مثال ذلك هذا الحوار الذي دار بينها وبين السلطان في الساحة العامة خلال المزاد العلني :

السلطان ــ أترين هذا الوضع مقبولا ؟

الغانية ــ اكثر من مقبول . أراه مدهشا .

السلطان ــ هو مدهش فعلا . سلطان يصرف شؤون الدولة مـن بيت امرأة يقال انها ... لا تؤاخذيني . معذرة .

الغانية ــ قل قل . الكلمة لم تعد تجرحني لكثرة ما تلقيت مـن وخزات . تكسرت النصال على النصال .

ومن هذا الحوار نعلم أن الغانية قد عانت معاناة طويلة دامية مـن سماعها لفظة « عاهرة » يطلقها الناس عليها . ثـم بدأت تتقبل الاسم وتسكت . ولكن هذا الاسم دفعهـا الى الجرأة والسلاطة وعدم الاكتراث بقواعد السلوك ولو الى حد ما . ويتجلى ذلك في موقفها من الجـلاد في الفصل الاول . فقد ارسلت اليه خادمتهـا لتضربه بالفعل . وهذا موقف لا نقفه سيدة شريفة ، فالشريفات لا يضربن الرجال بالنعال مهمـا تكن الاسباب الدافعة الى ذلك . ثم انها تشتري للجلاد خمرا وتسقيه ، ومع انها تفعل ذلك انقاذا للمحكوم عليه بالاعدام الا أنه يترك في نفوسنا تساؤلا عن الطبقة التي تنتمي اليها هذه المرأة التي يسقى الناس الخمر على حسابها .

ومهما يكن فان الغانية تفلسف موقفها هذا للسلطان قائلة : « ظن بي السوء ما شئت ، ليس من عادتي الدفاع عـن نفسي ضد ظنـون الآخرين . اني في أعين الناس امرأة سيئة السيرة وقد انتهى الامر بي الى قبول هذا الحكم وقد وجدت في ذلك الراحة لي . ولـم يعد مـن مصلحتي تصحيح رأي الناس . » ثـم نضيف العبارة التـي تلخص فلسفتها وهي قولها : « عندما يجتاز الانسان أقصى حدود السوء فانـه يصبح حرا . وانا احتاج الى حريتي . » ومضمون هـذه الفلسفة ان الانسان يفيد نفسه بقواعد عسيرة التطبيق من السلوك طلبـا لسعادة الشعور بحسن السمعة بين الناس ، فاذا انهمه هؤلاء الناس لم يعد له ما يحرص عليه بينهم ، وهذا مرير مؤلم غير ان له جانبا مبهجا ــ على رأي هذه الغانية ــ هو ان المتهم يكتسب حريته فلا يعود يهمه ان يتقيد بالقواعد المتعارف عليها . والغانية تسمي نبذ القواعد الخلقية حريـة وتقول انها تحتاج الى هذه الحرية . ولذلك نراها تستخدم في منزلها خادمة سليطة لا تبالي ان تضرب رجلا سكران بالفعل ، وهـذا المسلك وغيره يبرر عند الناس تسميتهم لها بالعاهرة . امـا السلطان فهـو لا يعرفه عندما يسميها « السيدة الفاضلة » فكل حكمه عليها مرتكز الى أقوالها .

وخلاصة القول أنه اذا كان توفيق الحكيم يقصد ان نعتبر الغانية امرأة شريفة فقد كان عليه ان ينقي حياتها من هذه المآخذ . ذلـك ان المرأة الفاضلة نرفض ان تتحرر من قواعـد السلوك حتـى اذا سماها المجتمع عاهرة . لان في الاخلاق الفاضلة لذة للفاضل لا تزول حتى اذا فقد سمعة الفضيلة . والخلق النقي صفة راسخة فـي قلب المتخلـق لا تزعزعها التسميات . وانما يبدو لنا ان هذه الفتاة غانية كما سماها توفيق الحكيم لها بعض صفات الشريفات ولكن على سلوكها مآخذ . ومن ثم فيكون السلطان قد تجـوز عندما سماها بالسيدة الفاضلة ورفـع مستواها من طبقة الى طبقة أعلى وأرفع . وهذا قد يستتلي أن السلطان قد أحبها ووقف منهـا موقفا عاطفيا محضا جعله يندفع الى رفع مستواها الاجتماعي .

ولكن موقف السلطان من الغانية لم يكن كله نابعا من العاطفة وانما استند جانب منه الى التقدير الانساني لما صدر عنها مـن نبل وكـرم أخلاق ، فقد وقفت من السلطان موقفا نبيلا يستحق الاعجاب . ذلـك انها اشترته بكل ما ادخرته خلال حياتها من أموال وهو مبلغ ثلاثين ألف دينار نعلم من حديث (المجهول) موكلها انها لا تملك غيره . ولـم يكن دافعها في بداية هذا الموقف نبيلا ، فنحن ندري انها اشترت السلطان لا لتعتقه ولا لتحرره ولا لتهبه للشعب حاكما عادلا شجاعا وانما كـان دافعها الاول تعبيرا عن نزوة صبيانية طارئة فقـد اعجبها ان يكـون السلطان مملوكا لها لتمرح معه وتلهو وتستمتع ، وراق لهـا ان تراه يحكم الشعب من بيتها فترتفع قيمتها وتزول الوصمة عـن سمعتها . فكانت دوافعها الى الشراء انانية محضة . او لعلها أرادت ان تنتقم من

المجتمع الذي أذلها بأن تذل سلطانه الحاكم وتجعله عبدا رقيقا لها .

غير ان هذه الدوافع الاولى ما لبثت ان تلاشت عندما افهمت الغانية حقيقة موقفها ونتائجه . ومؤدى ذلك ان على السلطان اما ان يكون عبدا في منزلها ويتخلى عن العرش او ان تعتقه ويكون سلطانا وعند هذا تقول الغانية « انه لمؤلم ان اتركك تذهب ، ان افقدك الى الابد ، ولكنه مؤلم أيضا ان أراك تفقد عرشك ، لان بلادنا لن يتاح لها ابدا سلطان في مثل عدلك وشجاعتك . لا . لا تترك الحكم ولا تعتزل العرش . أريد ان تبقى سلطانا . » ومن ثم فانها قد اختارت بين الامرين العسيرين : « العبودية التي نمنحه لها والحرية التي تحفظه لعرشه وشعبه . » وهذا الاختيار هو موضع النبل في موقفها فقد حرصت على مصلحة الشعب وتنحت عن امتلاكها للسلطان وبذلك خسرت مالها وفرصة السعادة في حياتها معا . ورجعت امرأة فقيرة سيئة السمعة في سبيل حرية الشعب ورفاهيته . فهل من تضحية اكبر من هذه ؟

وقد يقال في مناقشة تضحيتها ، أنها كانت مضطرة اليها ، لانها خشيت ان يقتلها السلطان ان لم تعتقه كما هدد الوزير . غير ان توفيق الحكيم لم يجعل هذا دافعا للغانية مطلقا ولم يجعله يدور في خلدها . وقد سمعنا السلطان نفسه يؤكد اختياره للقانون واصراره على المضي في تنفيذه الى النهاية دونما لجوء الى السيف . فالغانية آمنة من هذه الناحية فضلا عن ان الخوف لم يتسرب الى نفسها قط ، فحتى لو كان احتمال القتل قائما فان الغانية لم تفكر في هذا الاحتمال ولم تحكمه في موقفها وانما كان مسلكها حرا حرية خالصة دوافعه وطنية غيرية لا أنانية فيها . وتزيد الغانية نبلا كلما تقدمت الاحداث ، وتثبت كرما خلقيا نادر المثيل . فعندما يؤذن المؤذن في منتصف الليل ويخرج السلطان ويوجه اللوم الى القاضي قائلا : « وأنت يا قاضي القضاة ، ألا تخجل من اللعب هكذا بالقانون ؟ » اذ ذاك رفضت الغانية ان تكون أنانية وأن تتقبل حرص السلطان على اكمال الليلة معها حتى الفجر قائلا : « اما أنا فساحترم شرط هذه السيدة بمعناه الحقيقي الذي فهمناه كلنا . هلمي يا سيدتي . لنعد معا الى بيتك . اني طوع أمرك . » عند هذا تقول الغانية : « لا يا مولاي السلطان ، ان قاضي قضاتك أراد أن ينقذك ، واني لا أحب ان اكون أقل منه اخلاصا لك . انت الآن حر يا مولاي . » وبادرت الغانية الى توقيع حجة العتق وقد اختارت بذلك ان تخسر حتى الليلة المنفردة التي اشترتها بمالها كله . وهي بهذا قد رفضت ان تستغل نبل السلطان وحرصه على تنفيذ شرطها فاعطته حريته كاملة دون ان تجبره على شيء .

ثم ماذا ؟ عند هذا يقول السلطان : « فلنتقدم بالثناء على كرم هذه السيدة النبيلة . اسمحي لي يا سيدتي ان اوجه لك شكري وأن ارجو منك ان تقبلي رد مالك اليك . » واذ ذاك تندفع الغانية متوسلة: « لا لا يا مولاي السلطان . لا تسترد مني هذا الشرف . ما من ثروة في الارض تعدل عندي هذه الذكرى الجميلة التي سأعيش عليها طيلة حياتي ، اني بشيء زهيد أسهمت في حدث من أعظم الاحداث . » وترفض حتى ان يهديها السلطان الياقوتة الفريدة المخيطة في عمامته ، لانها لا ترى نفسها جديرة بها .

ومغزى هذا الرفض من الغانية عميق ، فهي ترفض المال وترفض الهدية لانها تقيم عواطفها نحو السلطان تقييما معنويا خالصا يجعل المال والياقوت يبدو تافها بازائه. ولذلك ترفض التعويض المادي رفضا قاطعا . ولكننا نعلم انها تطلب قلب السلطان في مقابل حبها وتضحيتها ، فلو قبلت المال لخسرت هذه الفرصة وأصبح مضمون تضحيتها ضائعا . وانما تريد ما هو فوق المال . تريد سعادة الفكر والروح في تقدير السلطان لها . وليس في آخر المسرحية ما ينفي احتمال حصولها على هذه المكانة في قلب من أحبت ، فالسلطان فيما يلوح قد بادلها احساسها المبهور الى درجة انه قال لها : « لن أنسى أبدا أني كنت عبدك ليلة . » وهي عبارة كبيرة المغزى تتأثر لها الفتاة حتى تبكي ولكنها تحرص على اخفاء دموعها . ومما يؤيد احتمال استجابة السلطان لمشاعرها انها سألته قائلة : « اهذه الليلة هي ليلتنا الاخيرة معا ؟ » فأجابها : « هذا سؤال عسير الجواب . » ومعنى عدم قدرته على الاجابة انه يميل اليها ويتأثر بشخصيتها القوية بحيث لا يستطيع ان يقول لها : « نعم . لن أراك ثانية . » وانما يحار ويتردد ويتوقف . وفيما بعد أصدر أمرا الى الناس بأن يحترموا هذه السيدة ويكفوا عن الاساءة اليها بالتسميات الجارحة . فكل هذا قد يوحي بانه مال اليها ، وقد يعني انه سيتزوج بها في المرحلة التالية حين تعدل سيرتها وترتفع في أعين الناس . ولكن توفيق الحكيم أعطانا مجرد لمحات حول هذا الموضوع ولم يقطع بشيء . وانما ترك الامر معلقا على تقديراتنا واستنتاجاتنا . ومهما يكن فان القارىء ينتهي من القراءة آسفا على انه لم ير السلطان يتزوج فعلا بالفتاة .

٣ ــ شخصية قاضي القضاة

تبدو شخصية القاضي متناقضة الى حد ملحوظ لا بد للناقد من ان يأخذه على الاستاذ توفيق ، فان في النفس تساؤلا فنيا عن التفكك الملحوظ في هذه الشخصية . ذلك اننا نلاحظ له عبر احداث المسرحية موقفين متناقضين متعارضين تمام التعارض لا تفسرهما شخصيته ولا ظروفه . والموقف الاول كان صلبا كل الصلابة ، راسخا كل الرسوخ، وفيه فضل القاضي ان يقتل على ان يخون القانون . فما كادت قضية عبودية السلطان تعرض حتى اعلن القاضي أنه لا يملك وثائق بعتق السلطان ، وعندما اقترح الوزير استعمال الكذب باشاعة زعم بين الناس مؤداه ان السلطان قد سبق عتقه ، توقف القاضي ورفض ذلك في اسلوب جريء لا ينساه المشاهد ، فقد دار الحوار التالي :

الوزير ــ يكفي ان نعلن على الملأ ان مولانا السلطان قد اعتق عتقا شرعيا ، اعتقه السلطان الراحل قبل وفاته ، وان الوثائق والحجج مسجلة ومحفوظة لدى قاضي القضاة، والموت لمن يجرؤ على تكذيب ذلك.

القاضي ــ هناك شخص سوف يكذب ذلك .

الوزير ــ من هو ؟

القاضي ــ أنا .

السلطان ــ انت ؟

القاضي ــ نعم . أنا يا مولاي . اني لا أستطيع ان اشترك في هذه المؤامرة .

الوزير ــ انها ليست مؤامرة . انها خطة لانقاذ الموقف .

القاضي ــ انها مؤامرة ضد القانون الذي أمثله .

وعندما يقترح السلطان ان يتنحى القاضي ويسكت ويتركه هو والوزير يتصرفان يعلن القاضي انه سيحكم ببطلان كل تصرفات السلطان ولا يقترح بديلا لذلك الا احد ثلاثة اما عزله ــ اي القاضي ــ عن منصبه ، او طرده من البلاد ، او قطع رأسه . والا فهو لن يسكت .

وأين هذا الموقف الصلب المتمسك بالحق الذي يحترم القانون احتراما مطلقا ، من الموقف المائع الذي اتخذه القاضي في الفصل الثالث حين رأى السلطان في بيت الغانية لا يخرج الا اذا أذن لصلاة الفجر ، فداس القانون والدين معا وجعل المؤذن يؤذن للفجر في نصف الليل ، وفي هذا ما فيه من ظلم لامرأة اشترطت ان تتخلى عن أموالها كلها واعتق السلطان مقابل ليلة واحدة يقضيها في منزلها . فباي حق تسلب هذه المرأة حقها ، وشرطها قد قبل وأقره القاضي نفسه ؟ أين هذا الموقف المزري من ذاك الموقف الاول ؟

معنى هذا كله ان توفيق الحكيم قد زعزع شخصية القاضي وادخل التناقض عليها ، ولسنا ندري لماذا فعل هذا والبناء الفني للمسرحية لا يبرره ، حتى مع ملاحظتنا لكون حل العقدة يتوقف على ان تحرم الغانية تنفيذ شرطها فيخرج السلطان من بيتها قبل الفجر ، لان المؤلف كان يستطيع ان يجعل مثل هذا التلاعب بالقانون يتم بأمر الوزير بدلا من القاضي . ولعل لاديبنا المبدع الاستاذ توفيق تعليلا يجيب عن سؤالنا ؟

يضاف الى ذلك ، المأخذ الواضح على سلوك القاضي في الفصل الثاني ، فانه باع السلطان بالمزاد العلني تنفيذا للقانون فكان ينبغي له ان يتمسك بصيغة شرعية لهذا البيع ، بدلا من ان يجعله بيعا «خاصا» مشروطا بالعتق . ولم يسمع قط أن بيت المال يبيع ملكا بالمزاد ويشترط التخلي عنه فورا . فما معنى ان يشتري الانسان شيئا ثم لا يستطيع ان يملكه ؟ ولو كان ذلك التخلي عن البضاعة المشتراة اختياريا مراعاة لدوافع وطنية يستثيرها القاضي في نفس المشتري لصح الامر ، اما ان يجبر المشتري على العتق فورا فهو أمر مخالف لقوانين البيع والشراء وما كان ينبغي ان يصدر عن قاض رأينا منه التمسك بالقانون تمسكا متشددا بحيث فضل الموت على مخالفة الشرع . فهذا المأخذ لا يقل عن سابقه جورا وعسفا وهو مناقض حق المناقضة لشخصية قاضي القضاة في الفصل الاول .

وان القارىء ليتساءل معنا : اذا كان القاضي يستسهل اللعب بالقانون فلماذا عرض السلطان للهوان بطرحه في المزاد العلني امام أعين الشعب ؟ وقد يمكن ان يبرر ذلك بأن القاضي كان مغرضا هدفه اذلال السلطان من وراء ستار الحرص على القانون . لولا ان اخلاص القاضي للسلطان ملحوظ عبر احداث المسرحية بحيث لا نستطيع ان نشك فيه ، ومن ثم فلا يبقى الا التناقض قائما . وهذا مأخذ اكيد على هذه الشخصية في مسرحية توفيق الحكيم .

٤ ـ شخصية الوزير

يمكن لنا ان نصور هذا الوزير في اسطر قليلة تفني ، فهو رجل دموي الطباع شرس يسرع الى استعمال السيف ، والقتل عنده أسهل الحلول . ولذلك رأيناه يحكم على النخاس بالموت دونما محاكمة قطعا للالسنة . وعندما رفض الموكل المجهول توقيع حجة العتق لم يتمهل الوزير وانما أسرع يقترح تعذيبه ، وكذلك اقترح قتل الفانية وقال : « بالسيف يتم كل شيء في يسر ويحل في طرفة عين . »

والوزير بميله الى القتل والعنف ، لا يتورع عن ايجاد المبررات لسلكه ، مثال ذلك انه عندما خشي الا تعتق الفانية السلطان عند الفجر اقترح اتهامها بانها جاسوسة للمغول ليستطيع قطع رأسها فورا . فهو لا يتحرج من الكذب والظلم ومبدأه ـ على طريقة مكيا فللي ـ ان الغاية تبرر الواسطة . ومثل هذا الموقف لدى بعض رجال السياسة ، يرتبط في رأيي بغباء متأصل في أنفسهم ، وعجز عن رؤية المسالك المتعددة التي يمكن ان يحل بها كل مشكل دون اساءة الى بريء ،او ظلم لمعترض صادق له الحق في اعتراضه .

والى جانب هذا العنف والغباء نجد الوزير مخلصا للسلطان يستعمل كل وسيلة ممكنة في خدمته . ولا ينم هذا عن طيبة النفس في رأينا وانما ينبع من قوة شخصية السلطان واسرها للقلوب . فان للخير اشعاعا وجذبا . ولعل حب الوزير للسلطان قد وهبه شيئا من الذكاء الخاطف أحيانا ، لان حب الخير يوسع النفس الانسانية ويلهمها ويفتح لها ابواب الادراك . وهكذا نستطيع تبرير الموقف الحكيم الذي وقفه الوزير حين نصح للسلطان بالا يقتل قاضي القضاة قائلا : « لا تصنع من هذا الرجل شهيدا » ثم اضاف يقول : « رب شهيد مجيد له من التأثير والنفوذ في ضمير الشعوب ما ليس لملك جبار . » فهذا من امثلة التعقل في حياة وزير دموي يتصف بالغباء .

٣ ـ فلسفة المؤلف

تختبىء في ثنايا مسرحية السلطان الحائر طائفة من الآراء التي يؤمن بها توفيق الحكيم بحيث يستطيع القارىء استخلاصها . وابرز هذه الآراء ما حرص المؤلف نفسه على النص عليه في مقدمة المسرحية وهو الحكم بأن حل مشكلات العالم والحياة لا ينبغي ان يكون في اللجوء الى القوة والعنف (السيف) وانما القانون هو الحل ، فاذا مضينا في اتباعه نجونا . وقد لخص السلطان هذه الفلسفة بقوله : « ان الذي يمضي قدما الى الامام في خط مستقيم يجد دائما مخرجا . »

ومذهب توفيق الحكيم في هذا ان القنابل الذرية لا تحل مشاكل العالم وانما الحل في الصبر والتعقل واتباع القانون واقامة الحق والعدل، وهو رأي حكيم فيه نبل وسمو ، فضلا عن ان الواقع يثبته .

ولكن توفيق الحكيم يشير الى ان اتباع هذا الرأي ليس سهلا وانما الطريق كله شوك وأبر ، فلقد أرانا هذا السلطان يحتمل الهوان فيباع بالمزاد العلني ويضطر الى قضاء ليلة في منزل امرأة مشبوهة ملوثة السمعة . على ان الامر كله ينتهي الى الخير ، فاذا نبل السلطان يؤدي الى ارتفاع نفسيات الاشخاص المحيطين به ، فتتحول الفانية من تلك الفتاة الانانية التي تصرخ « مالي .. مالي ! » الى اخرى نبيلة ترفض ان تعطى ثمنا لفضلها وكرمها وتأبى الا أن تتمسك بالذكرى الجميلة ، ذكرى المساهمة في عمل وطني نبيل .

* * *

ولقد كانت شخصية هذه الفانية صورة من فلسفة توفيق الحكيم حول المرأة ، فان هذا الكاتب الذي اعلن نفسه حينا عدوا للمرأة انما يصدر في ضيقه بمسلكها عن نظرة مثالية اليها ، فهو يريد المرأة قوية الشخصية تؤدي اعمالا بطولية خارقة لا يقدر عليها انسان . ومن امثلة هذا في مسرحه تمثيلية « الخروج من الجنة » وفيها شخصية السيدة (عنان) زوجة مختار . وقد اكتشفت بعد زواجها انها تحب زوجها وتعجب به أشد الاعجاب ، فضنت بحبها ان يبتذل بالفة الزواج ورتابة حياته اليومية ، وأرادت ان تبقيه حبا روحيا خالصا فطلبت الطلاق من زوجها ، وابتعدت عنه مختارة لتصون جوهر حبها وترفعه عن الابتذال والتلوث . وهذا موقف عسير على القلب الانساني ، ربما لم يطقه بشر، ولذلك كتب الاستاذ توفيق على مسرحيته تلك ان شخصية (عنان) مصنوعة من الخيال فلا وجود لها الا في ذهن مؤلفها . والواقع انها ضحت بقلبها وحبها في سبيل فكرة مثالية عالية لا يطاق الوصول اليها. والشخصية كلها صورة من رغبة توفيق الحكيم في ان يرى المرأة شامخة قوية ذات مثل راسخة بحيث تتحدى الجبال ، فاذا قصرت عن ذلك أعلن نفسه عدوا لها .

وغانية « السلطان الحائر » لا تخلو من ملامح المثالية التي يبحث عنها توفيق الحكيم لانها تتحدى المجتمع تحديا سافرا جريئا لا تخشى فيه حتى ان توصم بأنها « عاهرة » . وابرز ما يميز هذه الفانية انها شريفة غير ملوثة تخالط الرجال حبا لارواحهم مترفعة بنفسها عن الاتصالات المدنسة ، باحثة عن الثقافة والفن والمتعة البريئة . وليس يخفى ان هذه الفانية قد عاشت في عصر كان المجتمع فيه يعزل المرأة عن الحياة ويحيلها الى السلبية والهوان . ولقد أرادت الفانية ان تخرج من هذا الاطار الضيق ففتحت باب بيتها ورفعت صلة المرأة بالرجل من علاقة المادية الحيوانية الى علاقة الفكر والروح ، ودفعت ثمن ذلك من سمعتها فكان هذا هو موضع الجرأة والتحدي . وفي موقف الفانية نوع من الاستشهاد الروحي والفكري ، فهي تضحي بنفسها في سبيل فكرة . تريد ان ترفع المرأة وتطهر علاقتها بالرجل من ربقة المادية الجسدية وتوصلها الى رتبة الصداقة الفكرية والروحية . وكل هذه القيم متضمنة في موقف الفانية وان لم تصرح بها او تشخصها تماما .

ثم ان شخصية الفانية قد ذكرتني بشخصية (شهرزاد) لتوفيق الحكيم في مسرحيته المعروفة . فان بين الشخصيتين تشابها عاما . وما الذي تمثله شهرزاد بالمعنى الفكري ؟ انها تتصف قبل كل شيء بقوة الشخصية بحيث تتحدى الخطر فتقدم باختيارها على مجابهة ملك دموي موتور يقتل امرأة كل ليلة . وعندما ينهاها ابوها ـ الذي يمثل المجتمع ـ عن ذلك تطمئنه وتصر على موقفها الجريء . والجوهر في مسلكها هذا انها تقدم نفسها ضحية في سبيل انقاذ المئات من النساء ، وهي اذ تفعل هذا انما تقامر بحياتها مقامرة لا يعلم نتائجها الا الله ، فاما ان تثبت أصالة ذهنها وقوة شخصيتها فتأسر روح الملك وبذلك تنجو ، او ان يظهر عجزها وضعفها فتقتل كما قتلت قبلها مئات من الفتيات . ولكن شهرزاد اذ تقدم تشعر انها قادرة على النجاح وان النصر

الفكري والروحي سيكون لها . ولذلك كانت المرأة الوحيدة التي تقدمت الى الملك طائعة غير مجبرة ، وسرعان ما انتصرت انتصاراً باهراً ، فلم يكتف الملك باعفائها من القتل وانما بات أسير حبها وارتفع على يديها الى مرتبة الفيلسوف . وهذه هي اللمسة المثالية التي اجتذبت توفيق الحكيم الى حكاية شهرزاد ، فهو يجد فيها صورة من المرأة النموذجية التي يحلم بها . المرأة التي تضحي بنفسها من أجل القيم العليا ، وتلهم الرجل وتفتح له أبواب الفكر والروح على مصاريعها .

وهذه الغانية ؟ ألم تضح بنفسها من اجل القيم الاجتماعية ؟ اما كان مجتمعها مهددا بأن يفقد ملكه الشجاع العادل العظيم ؟ اما تطوعت بمالها جميعا لانقاذه ؟ وعندما عرفت انه بين اثنين اما ان يفقد عرشه ويصبح مملوكا لها ، او ان يحكم وهو حر لاسطورة لها عليه . اذ ذاك .. اما رأيناها تضحي بمصلحتها الفردية وتختار المسلك العسير فتتخلى عن بطلها وحبيبها ؟ هنا لمسة السماحة والبطولة في شخصيتها وذلك ما يحبه توفيق الحكيم في المرأة ، ولذلك رفع الغانية من مستوى العاهرة الى مرتبة السيدة الفاضلة الخيرة .

وكما انتصرت شهرزاد على الملك شهريار انتصرت الغانية على سلطانها فقال لها انه لن ينسى هذه الليلة التي كان خلالها عبداً لها . فالانقياد الروحي من الملك موجود في الحالتين ، والرجل قد انقاد للمرأة بروحه وذهنه وأحبها وارتفع الى مرتبة الالهام على يدها . وكل هذه المعاني كامنة في صياغة المسرحية . ولعل الاستاذ توفيق قد قصد شيئا منها عندما جعل السلطان والغانية يذكران شهرزاد وموقفها في (الف ليلة وليلة) . وقد بلغ من احساس السلطان بسطوة الغانية انه لم يشبهها بشهرزاد بل رأى فيها سطوة شهريار وجبروته لانه احس انها كانت هي التي تمسك بزمام الموقف . ولكن الغانية سرعان ما تأبى هذا الحكم وترد الى نفسها رقة المرأة واستسلامها الملهم وحكمتها في الايحاء والتوجيه الخفي فقالت له : « لا . أنت السلطان دائما . أما أنا فهي التي في وضع شهرزاد الجالسة دائما عند قدميك . » وهي تعلم انها أقرب الى قلبه عندما تتخذ هذا الوضع . ولذلك اختارته .

***

بقي من أفكار توفيق الحكيم ما يبدو لي انه رأيه في مسألة العبث بالاذان لاسباب دنيوية . والظاهر من سياق الصياغة في المسرحية ان المؤلف يرى ان ينزه الاذان عن ان يستعمل توقيتا لكذا وكذا من اغراض الدنيا العابرة . فذلك وقت الصلاة ولا ينبغي العبث به لاي سبب من الاسباب . أما من يعبث به فهو يعرض نفسه الى المشاكل عاجلا او آجلا . وقد صور المؤلف هذه الفكرة عندما جعل الغانية في الفصل الاول تغري المؤذن بالعبث بوقت الآذان ، وكان دافعها الى ذلك نبيلا ولا ريب فقد ارادت انقاذ حياة المحكوم عليه الذي قضي عليه أن يعدم عند أذان الفجر . ففي هذه الحالة استخدمت الغانية الاذان ضد الجلاد والوزير . فماذا كانت النتيجة ؟ استخدم الاذان ضد الغانية نفسها في الفصل الثالث ، حين اشترطت ان تنعم بزيارة السلطان لمنزلها حتى أذان الفجر ، فاذا قاضي القضاة يقدم الاذان الى نصف الليل ويحرمها نشوة السعادة ، وبذلك أصبح الاذان ضربة قاصمة لرغباتها . وتلك هي العبرة ، فالعبث بالقوانين والشرائع قد يكون في صالح العابث حينا وفي صالح اعدائه حينا آخر . والافضل ان تصان الشرائع ولا تمس قداستها . وذلك معنى متفرع من المغزى العام للمسرحية .

وآخر ما نحب ان نقول ان توفيق الحكيم قد وفق في هذه المسرحية الى الجمع بين الحركة المسرحية الحية ، وقوة الفكرة ، وتنوع الشخصيات ، وجمال الحوار ، يضاف الى ذلك انه استطاع ان يجعل الاحداث تنطق نطقا معبرا وتبين عن معان فلسفية وقضايا فكرية مهمة مثل ارتفاع العدالة والقانون عاليا فوق المصلحة الشخصية التي تضمنها قوة السلاح . ومثل صلة الخير والخلق الكريم بالجمال والحب ، ومثل العلاقة بين الحرية والاخلاق . وقد رفع ذلك كله مستوى المسرحية وجعلها في مكان رفيع بين مسرحيات توفيق الحكيم .

نازك الملائكة
الكويت

أصول الفكر الماركسي

تاليف او غست كورنو
ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

رحلة من داخل الفكر الماركسي وتأصيل للحركة الماركسية في الفكر الالماني قبل ماركس بدءا من الفلسفة العقلانية الى الحركة الرومانتية ثم وقفة كبيرة عند هيغل من حيث هو مصدر غنى للفكر الماركسي ثم وقفة كبيرة أخرى عند اليسار الهيغلي بصفة عامة ولودفيغ فيورباخ بصفة خاصة .. وهنا يهتم المؤلف بابراز فكرة الاغتراب عند كل من هيغل ثم موسى هس وفيورباخ ، وهي تلك الفكرة التي اثرت على ماركس الشاب وبحث في المكونات الفلسفية وتطوره الفكري حتى البيان الشيوعي بعد ان تكون رحلة الاصول قد استكملت ..

والمؤلف واحد من كبار المفكرين الماديين واستاذ للتاريخ الثقافي بجامعة همبولدت ببرلين .. وهو من اوائل من اهتموا بمشكلة الغربة عند ماركس وركز على مخطوطة ماركس الاقتصادية والفلسفية التي نشرت في الثلث الثاني من القرن العشرين وعدلت النظر الى كارل ماركس ..

الثمن ٣٠٠ ق.ل

صدر حديثا ــ عن دار « الاداب »